روايات الحسناء

فرع سلمى

غابت الشمس . فعاد الناس الى منازلهم يشكون سوء الحال ولم يبق خارج المدينة الا الملتهي بالعرق والبيرا . وكان حديث الجميع في ذاك اليوم فتنة الاستانة والناس خائفون من الانقلاب السياسي واستتباب السيطرة للمستبدين والرجوع الى الماضي . وهم لم يتنزهوا يومئذ في البرية حباً بالطبيعة ورغبة في استجلاء بدائعها بل ضاقت بهم رحاب المنازل فغادروها متبلبلين الى حيث يتلاهون عما يقلقهم . ولكن ذلك لم يجدهم نفعاً اذ كانت الاخبار راسخة في اذهانهم لم تلهيهم عنها المناظر الطبيعية ولا منتزهات قصيرة حتى ان الذين شربوا المسكرات بقصد التسلي ندموا لانها نبهت حاساتهم فزادتهم شعوراً بخطارة موقف الدولة . وبديهي ان العثمانيين كانة لم يمر عليهم اسبوع في هذا القرن اشد قلقاً من اسبوع الفتنة . ولا غرو لان السلطان عبد الحميد المخلوع كان آمراً باضرام نيران الثورة وذبح المسيحيين والدستوريين في العاصمة وكل الولايات استرجاعاً لسلطته المطلقة . والحمد لله فقد خاب قصده

وكانت السيدة سلمى ملازمة البيت كل النهار لم تذهب الى الكنيسة لسمع القداس كعادتها في كل احد وعيد . ولا زارت صديقاتها كالعادة . ولا راحت الى النزهة شأنها كل مساء حتى انها لم تتقن الا (تواليت) ولا اهتمت بها بل اكتفت بالا (روب دي شامبر) والا (كوافير الا نيبرج) لان الرعب حل بها والخوف قد استولى عليها فلم تعد تعي على شيء من لوازم الزينة وفقدت شاهية الطعام و بالجهد استطاعت شرب الحليب . وصارت تتوهم صوت الكبسولة دوي رصاص وهذا طلق مدفع . واوجست خوفاً من كل مسارة ووشوشة وتراءى لها في الاجتماع موآمرة وفي التجمهر ثورة وفي الغناء بكاء وفي النداء ولولة . وبقيت على هذه الحال اياماً وجفناها لا يذوقان طعم الكرى الا قليلاً حتى خارت قواها وشحب لونها وتنكد عيش العائلة كلها

لحظ ذلك الجيران فجاءت السيدات مريم وساره وروزه ليتشطن جاراتهن ويطمئن بالها فوجدن اثار البكاء ظاهرة عليها فاستفهمنها ثلة بكائها لعلهن يستطعن تفريج غمها وتسليتها عما بها فاجابتهن والدمع يتلألأ في عينيها — ان البكاء دليل اشتعال القلب وقلبي اليوم ملتهب جزعاً — فاستوضحنها الامر فاذا هو حالة الدولة الحاضرة التي رعبتها الى درجة لم تعد فيها

تحتمل البقاء تحت ظل الهلال فحاولت جهدها اقناع اخوتها وقريبها وبيتها بمغادرة الوطن الى مصر او اوربا فلم يوافقوها على رأيها اولاً لوفرة اشغالهم واهميتها ثانياً لعدم امكانهم القيام بنفقات السفر والتغرب بسهولة ويسر ثالثاً لاجتراء بعضهم على افتيال هذه الحوادث دون وجل لشيوع قوة الدستور بين وتغلل الاتحاديين وحسن نياتهم وتأكدهم وثاق اهل المدينة وولاء مجاوريهم وارتباطهم بسلاسل الاتحاد المكينة ورابعاً لئلا يكونوا قدوة سيئة لمواطنيهم بالهرب فيتأثروهم في حين ان الامة باشد احتياج الى ابنائها على اختلاف المذاهب والطبقات . فاستسلمت اخيراً الى اليأس والتجأت الى مراحم الله بالتضرعات

وفيما هن يتحدثن عن احوال البلاد والخوف المستولي على صميمات القلوب ويصفن ما يعلمه من امرار الجباة للناس ونتائج الفزع في النفس وتأثيره في الجسم والعقل ووخامة عاقبته الادبية والمادية . وكل منهن تعدد حوادث خوفها وتفاخر غيرها بانها اجرأ منها . تنبهت ربة البيت وقالت من تواً مرعوب — هيئا الكن ياحديثاتي ولكل جريئة مقدامة

تجمعها زالرانها جهدهن ولما استسمن وابانا الموضوع واردن تغييره بحديث مسر . رغبت السيدة مريم اليها ان تقص على رفيقتيها رواية تلك الحادثة التي جرت لها من بضع سنوات كمثال لخوف الناس يختتمن به الحديث . تململت في بادىء الامر وتأوهت واذ لم تجد بداً من الكلام تكلمت

— كنت مرة انتزه مع شقيق وصهره في البرية بعيداً عن البيوت والطرق العمومية حيث لابشر ولا خوف . لسمعنا صوت استغاثة منقطع يتراوح بين اليأس والامل فخفت ووقفت وهممت بالرجوع لمثلا يتقدم رفيقاي اللذان رأيتهما يهمان بجهة المستغيث فابيا بداءة الأ التقدم لنصرة المظلوم فاستعطفتهما كثيراً ثم بعفيا وبعد الجهد تركتهما يذهبان على ان يستطلعا الامر فقط دون ان يبتدا خلا بين الخاصمين ولم اتمالك من اتباعهما ممكة بيديهما وقلبي هالع ورجلاي ترتجفان فوجدنا ثلاثة رجال مقنعين على السان الشرب العنيف وهو يكافحهم ويقاومهم حتى كل ساعداه ولم يعد يحتمل الثبات بلا موازرة فاستجمعت كل قواي بيدي لاتمكن من منع القرين والشقيق عن الاقدام على مساعدته ولم الحق سريانهما من شدة الخوف . وقد يستقوي الضعيف في حالة اليأس ويستبسر العصفور . بل حتمت عليهما حتماً بالتباعد عن محل الخصام والشغب يسيرانا الى حيث نأمن شر المتفاربين وكنت لولا القليل اغشي على من الجزع . لأتراني على المضروب وحشيا عافية كثيرة تأثري فجاملاني وسارا مكرهين معي . والمسكين يستغيث ولا مغيث والدم يسيل من جروح رأسه على خديه فيصبغ

اصفرارها بالاحمرار . على اني لو تركتهما قيامًا بواجب الانسانية وكما يجب ان يؤمل من بنات جنسي لعاوناه على الاشقياء وفازوا عليهم ووقوني واياها من رجوعهم الينا . ولكن من اين لي الجراءة على احتمال مرأى القتال وانا ربية الجباناة من صغر . اليفة الخوف . حليفة الفزع يهولني الصرصور وترعبني كلمة به

ولما غلب الاشقياء الرجل واغتصبوا دراهمه وكانت بضعة غروش نقط ندموا على تعبهم اذ لم توازه القيمة فحتموا تمثيل الرواية المجعمة بتقييد الجريح الى شجرة انتقامًا منه لمقاومته لهم وعدم حمله ليرات . وساروا في سبيلهم ساخطين . وكنا نحن لازال قريبين من مرمى تنبلهم وناظرين اليهم من خلال اشجار الغاب دون ان تعلم بانهم ابصرونا ولاحظوا تجنبنا شرهم فاستضعفونا وهموا بنا . نسألني اخي السماح له بالاسراع لفك وثاق الرجل وتخليصه وقايته خطر الموت بضمد جروحه لئلا تستوفي دماؤه نحبوت . فابيت مطلقًا حذرًا من عودة الاشقياء الينا وكان الاولى بي ان اذهب بنفسي الى عمل هذا الواجب الانساني ان لم يكن معي احد ولو تعرضت لخطر او احض اخي على ذلك ان لم يكن بوده وكان الاجدر به ان يتركني مع قريبي ولا يراعي مخاوفي واوهامي ويسرع الى تنفيذ عزمه المبرور ولو أغشى علي وكان الاحرى يصبره ان يسبقه الى انقاذ الاسير ولو قيل عنه انه لايحترم ارادة قريبته

وهكذا الخوف قصّ قلبي وحجر عواطفي فتركنا ذاك المسكين وشانه ومررنا كمن فقد الرحمة وعدم الشعور . وما بعدنا كثيرًا حتى رأينا الجماعة مرتدين على اثرنا فاسرعنا فنادونا —قفوا—وتهددونا باطلاق الرصاص . فلا تسل ياصديقاتي عما اعتراني لما سمعت كلامهم هذا ومن مبلغ تأثري الآن قد تستطعن تقدير بعض ماعانيت حينئذ من هلع الفؤاد . اذ حالما سمعت نداءهم وتهديدهم جلد دمي في عروقي وارتجف بدني وخارت قواي فارتميت على الارض غائبة عن الوعي لا استطيع حراكًا ولم افق الا والاشقياء تبدلوا اصدقاء فرأيت حولي رفيقي وثلاثة رجال عرفتهم حالًا بانهم من ابناء حينا (الابطايات) فهممت بالنهوض فورًا لاشكر مجيئهم الينا عند الحاجة اليهم فلم استطع من شدة تأثري وكانت كلمة الشكر اول ما فاه بي لساني لما وعيت ثم سألت كيف انتهى الامر مع اولئك الاشقياء ومن اي جهة ساروا فابشم اخي واجاب : فزنا عليهم وصرنا بمأمن منهم فلا تخافي . فقلت . الا يتاثرونا بعد . فتبسم الجميع وقالوا . لا . فاطمئنيت نوعًا ما وبقيت ريثما نلت بعض الراحة واستجمعت بعض القوى وقمت متأملة وسرنا عائدين الى البيت يحفرنا الثلاثة معًا بعد ان بست الارض شكرًا لله وفينا نحن سائرون لحظت ما رابني من الرفاق فتحذرت وتجلد خوفي .

وهون الله وبلغنا الطريق العام حيث كانت المركبة بانتظارنا فركبناها بعد ان شكرنا مرافقينا واثنيت على حميتهم وتخليصهم لنا (كذا) واشرت من خوفي الى الحوذي بالتعجيل فسارت الخيل تنهب الارض نهباً فخفت ان تصدم المارة واحترت بين الامرين العجلة وربما نتج عنها اصطدام او التاخر وانا بحاجة الى بلوغ البيت وقد عرّضت السائق مراراً للخطر بلجاجتي ومترادفاتي (عجل . دير بالك . اوعى) فكان المسكين لدى كل كلمة لا يسمعها جيداً يستفهم المعنى فاعيدها عليه ولما راى كلماتي كلها ذات معنيين فقط ما عاد ردّ عليّ وحسناً فعل لانه بالهائي اياه ربما كان صدم احداً او اوقع المركبة في القناة كما كاد يجري لنا في احدى طرق الجبل مرة وكدنا بهذا السبب نصير طعاماً لثعالب الوادي وشراباً لاحجار المنحدر . ولم اجسر في الطريق على الاستفهام عما حدث مدة فقدي الشعور بل ما زلت الهث من التعب والوجل حتى بلغنا البيت حيث لم يعد قريبي يتمالك من الضحك (علي) وما اشد ما كانت دهشتي لما اخبرني ان الذين كانوا معنا هم الاشقياء انفسهم وانهم لم يعرفونا كما اننا لم نعرفهم الا بعد ان وصلوا الينا وفكوا لثاماتهم وانهم اعتذروا كثيراً على ما سببوه لنا وخجلوا بارتكابهم ذاك الجرم وقسوتهم على ذاك المسكين فبادر احدهم حالاً لفك وثاقه واطلاق سبيله بناء على اشارتهما وخلعوا بعض اثوابهم لئلا اعرفهم فارتعب وانهمني صريحاً باني لو تركته واخي يتقدمان للمدافعة عن الرجل لعرفوها حالاً وكفوا عن ضربه ولم يقيدوه وكنا انقذنا مشقة الفصل الثاني من روايتهم لانهم قالوا بان تجنبنا اياهم وعدم مدافعتنا عن فريستهم اطمعاهم بنا اذ رأونا جبناء كمن لامرأة عنده وتوهموا ايضاً اننا اغنياء نحمل النهب معنا ولربما لاجل هذا نخاف منهم فارتأوا اللحاق بنا بعد ان كانوا ذاهبين عنا

هذا مجمل الرواية ياعزيزاتي ونتيجتها كانت تأثيراً شديد في صحتي اضطرني الى ملازمة سريري اسبوعين كاملين

ولعلكما تتساءلن عن اسباب هذا الخوف ولربما تستغربنه ايضاً لو لم يكن متوفراً بين بنات جنسنا بالنسبة للتربية المألوفة في بلادنا التي ان لم يكن من مساوئها ومفاسدها غير تخويف البنات من الحكيم والخوري والمعلمة والراهبة والفقيرة والدم والبارودة والسكين فضلاً عن الجنية والعفريت والمارد والغول والشيطان — لكفاها مساوئ ومفاسد

ومع كل ذلك لانهتم باصلاح هذا الخلل العائد علينا بالضرر والمتصل تأثيره برجالنا ايضاً وهم مثلنا باصلاحه لايهتمون